## نفسير سورة الرعد

## وهى مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرٰ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور، فقد تقدم فى أول سورة البقرة، وقدمنا أن كل سورة تبتدئ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب، ولهذا قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أى هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، وقيل: التوراة والإنجيل، قاله مجاهد وقتادة، وفيه نظر بل هو بعيد، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أى يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة، واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا، واستشهد بقول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣] أى مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذى بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمدٍ، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعدًا لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبُعْد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها فى نفسها مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينهما من البعد مسيرة خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ الآية [الطلاق: ١٢].

وفى الحديث «ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسى فى العرش المجيد كتلك الحلقة فى تلك الفلاة» [(١)]. وفى رواية «والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل» [(٢)] وجاء عن بعض السلف أن بعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وهو من ياقوتة حمراء.

---

(١) صحيح: أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (١/ ٣٠٤)، برقم (٥٩١)، وانظر الصحيحة، برقم (١٠٩).
(٢) انظر السابق.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ روى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا ترى. وقال إياس بن معاوية: السماء مقببة على الأرض مثل القبة، يعنى بلا عمد، وكذا روى عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق، والظاهر من قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥] فعلى هذا يكون قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيدًا لنفى ذلك، أى هى مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل فى القدرة، وفى شعر أمية بن أبى الصلت «الذى آمن شعره، وكفر قلبه»(١) كما ورد فى الحديث، ويروى لزيد بن عمرو بن نفيل رضى الله عنه:

وأنت الذى من فضل منّ ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولا مناديا

فقلت له: فاذهب وهارون فادعوا ... إلى الله فرعون الذى كان طاغيًا

وقولا له:

هل أنت سويت هذه ... بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا؟

وقولا له:

أأنت رفعت هذه ... بلا عمد أو فوق ذلك بانيا؟

وقولا له:

هل أنت سويت وسطها ... منيرًا إذا ما جنك الليل هاديا؟

وقولا له:

من يرسل الشمس غدوة ... فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا؟

وقولا له:

من ينبت الحب فى الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا

ويخرج منه حبه فى رؤوسه ... ففى ذاك آيات لمن كان واعيا

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدم تفسيره فى سورة الأعراف وأنه يمرر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علوًا كبيرًا. وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كما فى قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨] وقيل: المراد إلى مستقرهما وهو تحت العرش مما يلى بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد ما يكون عن العرش، لأنه على الصحيح الذى تقوم عليه الأدلة: قبة مما يلى العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك، لأن له قوائم وحملة يحملونه، ولا يتصور هذا فى الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة، ولله الحمد والمنة.

وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التى هى أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه، فلأن يدخل فى التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى، كما نبه بقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:

(١) ذكره ابن حجر في الفتح (٧/ ١٥٣) وعزاه لابن منده.

٣٧] مع أنه قد صرح بذلك بقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف: ٥٤]. وقوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما أبتدأ خلقه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ۚ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝﴾

لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون، ليسقى ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ﴿مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[هود: ٤٠] أي من كل شكل صنفان ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي جعل كلا منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضًا في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي في آلاء الله وحكمه ودلائله.

وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أي أراضٍ يجاور بعضها بعضًا، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئًا، هكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم. وكذا يدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلا هو ولا رب سواه. وقوله: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ يحتمل أن تكون عاطفة على جنات، فيكون ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفًا على أعناب، فيكون مجرورًا، ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة.

وقوله: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ الصنوان: هو الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين، وبعض النخيل ونحو ذلك، وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه، كما جاء في الصحيح[1] أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه». وقال سفيان الثوري وشعبة عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه: الصنوان هي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان المتفرقات، وقاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ۚ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ قال الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ قال «الدقل،

(١) مسلم برقم (٩٨٣)، من حديث أبي هريرة.

والفارسى، والحلو، والحامض»، [1] رواه الترمذى وقال: حسن غريب، أى هذا الاختلاف فى أجناس الثمرات والزروع فى أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها، فهذا فى غاية الحلاوة، وذا فى غاية الحموضة، وذا فى غاية المرارة، وذا عفص، وهذا عذب، وهذا جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وهذا أسود، وهذا أزرق، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذى لا ينحصر ولا ينضبط ففى ذلك آيات لمن كان واعيًا، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذى بقدرته فاوت بين الأشياء، وخلقها على ما يريد، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ثلاثة أرباع الحزب ٢٥

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾

**يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ**: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلالاته فى خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء فكونها بعد أن لم تكن شيئًا مذكورًا، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره فى أنه سيعيد العالمين خلقًا جديدًا، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة سهلة عليه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣] ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ﴾ أى يسحبون بها فى النار ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أى ماكثون فيها أبدًا لا يحولون عنها ولا يزولون.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾

**يقول تعالى** ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أى هؤلاء المكذبون ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أى بالعقوبة كما أخبر عنهم فى قوله: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٦-٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ الآيتين [العنكبوت: ٥٣-٥٤]، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، وقال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨] ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ الآية [ص: ١٦]، أى عقابنا وحسابنا، كما قال مخبرًا عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ أى قد أوقعنا نقمتنا بالأمم الخالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم.

(١) حسن: الترمذي برقم (٣١٨٨)، وانظر صحيح الترمذي.

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧] وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠] إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف.

وقال ابن أبي حاتم: [(١)] حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحدًا العيش، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد» وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن عثمان أبي حسان الزيادي أنه رأى رب العزة في النوم، ورسول الله ﷺ واقف بين يديه يشفع في رجل من أمته، فقال له: ألم يكفك أني أنزلت عليك في سورة الرعد ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ قال: ثم انتبهت.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى إخبارًا عن المشركين أنهم يقولون كفرًا وعنادًا: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن يزيل عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجًا وأنهارًا، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الآية [الإسراء: ٥٩]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أي إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي ولكل قوم داع. وقال العوفي عن ابن عباس في تفسيرها: يقول الله تعالى: أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد. وعن مجاهد ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي نبي، كقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد. وقال أبو صالح ويحيى بن رافع ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي قائد. وقال أبو العالية: الهادي القائد، والقائد الإمام، والإمام العمل. وعن عكرمة وأبي الضحى ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قالا: هو محمد ﷺ. وقال مالك: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ من يدعوهم إلى الله عز وجل.

وقال أبو جعفر بن جرير [(٢)] حدثني أحمد بن يحيى الصوفي، حدثنا الحسن بن الحسين الأنصاري، حدثنا معاذ بن مسلم، بياع الهروي عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير عن ابن

---

(١) ضعيف بهذا السياق: فيه علي بن زيد ضعيف، والإسناد مرسل، لكن ثبت نحوه في صحيح مسلم، برقم (٢٧٥٦)، ولفظه «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد».

(٢) منكر: كما قال ابن كثير: أخرجه الطبري في التفسير (١٣/ ١٠٨).

عباس رضى الله عنهما، قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: وضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: «أنا المنذر، ولكل قوم هاد» وأومأ بيده إلى منكب على، فقال «أنت الهادى يا على بك يهتدى المهتدون من بعدى»، وهذا الحديث فيه نكارة شديدة، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا المطلب بن زياد عن السدى عن عبد خير عن على ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: الهادى رجل من بنى هاشم. قال الجنيد: هو على بن أبى طالب رضى الله عنه. قال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن عباس فى إحدى الروايات وعن أبى جعفر محمد بن على نحو ذلك.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذى لا يخفى عليه شىء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤] أى ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقى أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ [النجم: ٣٢] الآية، وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦] أى خلقكم طورًا من بعد طور، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] وفى الصحيحين [(١)] عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه ملكٌ فيؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه، وعمره، وعمله، وشقى أو سعيد». وفى الحديث الآخر «فيقول الملك أى رب أذكر أم أنثى؟ أى رب أشقى أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله، ويكتب الملك [(٢)].

وقوله ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال البخارى: [(٣)] حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا معن حدثنا مالك عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم ما فى غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله» وقال العوفى عن ابن عباس ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ يعنى السقط، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يقول: ما زادت الرحم فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تمامًا، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومن تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد فى الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيض والزيادة التى ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى.

---

(١) البخاري برقم (٧٤٥٤)، ومسلم برقم (٢٦٤٣).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٣١٨)، مسلم برقم (٢٦٤٦)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنهم.
(٣) البخاري برقم (٤٦٩٧).

وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: ما نقصت من تسعة وما زاد عليها، وقال الضحاك: وضعتنى أمى وقد حملتنى فى بطنها سنتين، وولدتنى وقد نبتت ثنيتى. وقال ابن جريج عن جميلة بنت سعد عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحرك ظل مغزل، وقال مجاهد ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: ما ترى من الدم فى حملها، وما تزداد على تسعة أشهر، وبه قال عطية العوفى والحسن البصرى وقتادة والضحاك، وقال مجاهد أيضًا: إذا رأت المرأة الدم دون التسعة، زاد على التسعة مثل أيام الحيض، وقاله عكرمة وسعيد بن جبير وابن زيد. وقال مجاهد أيضًا: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ إراقة المرأة حتى يخس الولد، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ إن لم تهرق المرأة، تم الولد وعظم.

وقال مكحول: الجنين فى بطن أمه لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه فى بطن أمه من دم حيضتها، فمن ثم لا تحيض الحامل، فإذا وقع إلى الأرض، استهل، واستهلاله استنكاره لمكانه، فإذا قطعت سرته، حول الله رزقه إلى ثديى أمه حتى لا يحزن ولا يطلب ولا يغتم، ثم يصير طفلا يتناول الشىء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل أنى لى بالرزق؟ فيقول مكحول ياويلك: غذاك وأنت فى بطن أمك وأنت طفل صغير، حتى إذا اشتددت وعقلت قلت: هو الموت أو القتل أنى لى بالرزق، ثم قرأ مكحول ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ الآية.

وقال قتادة: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ أى بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلا معلومًا. وفى الحديث الصحيح أن إحدى بنات النبى ﷺ بعثت إليه أن ابنًا لها فى الموت، وأنها تحب أن يحضره.

فبعث إليها يقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شىء عنده بأجل مسمى، فمروها فلتصبر ولتحتسب»[1] الحديث بتمامه. وقوله: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ أى يعلم كل شىء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شىء ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الذى هو أكبر من كل شىء، ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ أى على كل شىء ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] وقهر كل شىء، فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعًا وكرهًا.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شىء، كقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥]،

وقالت عائشة رضى الله عنها: سبحان الذى وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا فى جنب البيت، وإنه ليخفى على بعض كلامها، فأنزل الله

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٣٧٧)، مسلم (٩٢٣)، من حديث أسامة بن زيد.

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [١] [المجادلة: ١] وقوله ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ أى مختف فى قعر بيته فى ظلام الليل، ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أى ظاهر ماش فى بياض النهار وضيائه، فإن كليهما فى علم الله على السواء، كقوله تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾ الآية [هود: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ﴾ أى للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل، بدلا حافظان وكاتبان، كما جاء فى الصحيح [٢] «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون». وفى الحديث الآخر «إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع، فاستحيوهم وأكرموهم» [٣].

**وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله:** ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ﴾ والمعقبات من أمر الله وهى الملائكة، وقال عكرمة عن ابن عباس ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه، وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل، يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شىء يأتيه يريده، إلا قال له الملك وراءك، إلا شىء أذن الله فيه فيصيبه.

**وقال الثورى عن حبيب بن أبى ثابت،** عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ قال: ذلك ملك من ملوك الدنيا، له حرس من دونه حرس، وقال العوفى عن ابن عباس: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ يعنى ولى الشيطان يكون عليه الحرس. وقال عكرمة فى تفسيرها: هؤلاء الأمراء المواكب من بين يديه ومن خلفه، وقال الضحاك فى الآية: هو السلطان المحترس من أمر الله، وهم أهل الشرك، والظاهر - والله أعلم - أن مراد ابن عباس وعكرمة والضحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبد يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم.

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير [٤] ههنا حديثًا غريبًا جدًّا، فقال حدثنى المثنى، حدثنا

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا عقب حديث رقم (٧٣٨٥)، ووصله النسائي (٣٤٦٠)، ابن ماجه (١٨٨)، أحمد (٢٣٦٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٨٦)، ومسلم (٦٣٢).

(٣) أخرجه الترمذي بنحوه (٢٨٠٠).

(٤) الطبري في التفسير (١٣/ ١١٢).

إبراهيم بن عبد السلام بن صالح القشيرى، حدثنا على بن جرير عن حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة العدوى قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أخبرنى عن العبد كم معه من ملك؟ فقال «ملك على يمينك على حسناتك، وهو آمر على الذى على الشمال، فإذا عملت حسنة كتبت عشرًا، وإذا عملت سيئة قال الذى على الشمال للذى على اليمين أكتب؟ قال: لا، لعله يستغفر الله ويتوب فيستأذنه ثلاث مرات، فإذا قال ثلاثًا، قال: نعم اكتب أراحنا الله منه فبئس القرين، ما أقل مراقبته لله وأقل استحياءه منا، يقول الله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وملكان من بين يديك ومن خلفك، يقول الله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وملك قابض على ناصيتك، فإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبرت على الله قصمك، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ﷺ. وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية فى فيك، وملكان على عينيك، فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى، ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار، لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار، فهؤلاء عشرون ملكًا على كل آدمى، وإبليس بالنهار وولده بالليل».

**وقال الإمام أحمد** [(١)] رحمه الله: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا سفيان، حدثنى منصور عن سالم بن أبى الجعد عن أبيه، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة» قالوا: وإياك يارسول الله؟ قال: «وإياى، ولكن أعاننى الله عليه، فلا يأمرنى إلا بخير»، انفرد بإخراجه مسلم [(٢)]. وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قيل: المراد حفظهم له من أمر الله، رواه على بن أبى طلحة وغيره عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى وغيرهم. وقال قتادة: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قال: وفى بعض القراءات يحفظونه بأمر الله، وقال كعب الأحبار: لو تجلى لابن آدم كل سهل وكل حزن، لرأى على كل شىء من ذلك شياطين، لولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبون عنكم فى مطعمكم ومشربكم وعوراتكم إذًا لتخطفتم.

**وقال أبو أمامة**: ما من آدمى إلا ومعه ملك موكل يذود عنه حتى يسلمه للذى قدر له، وقال أبو مجلز: جاء رجل من مراد إلى على رضى الله عنه وهو يصلى فقال: احترس: فإن ناسًا من مراد يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدّر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، إن الأجل جنة حصينة.

**وقال بعضهم** ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ بأمر الله، كما جاء فى الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أرأيت رقىً نسترقى بها، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ فقال «هى من قدر الله» [(٣)].

**وقال ابن أبى حاتم**: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث عن أشعث عن جهم، عن إبراهيم قال: أوحى الله عز وجل إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل: أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا تحول الله لهم ما يحبون

(١) المسند (٣٧٧٠).
(٢) مسلم برقم (٢٨١٤).
(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢١٤٨)، ابن ماجه (٣٤٣٧).

إلى ما يكرهون، ثم قال: إن مصداق ذلك فى كتاب الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. وقد ورد هذا فى حديث مرفوع، فقال الحافظ محمد بن عثمان بن أبى شيبة[1] فى كتابه صفة العرش: حدثنا الحسن بن على، حدثنا الهيثم بن الأشعث السلمى، حدثنا أبو حنيفة اليمانى الأنصارى عن عمير بن عبد الملك قال: خطبنا على بن أبى طالب على منبر الكوفة قال: كنت إذا سكت عن رسول الله ﷺ ابتدأنى، وإذا سألته عن الخبر أنبأنى، وإنه حدثنى عن ربه عز وجل قال: «قال الرب: وعزتى وجلالى وارتفاعى فوق عرشى، ما من قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتى ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتى، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابى إلى ما يحبون من رحمتى»، وهذا غريب، وفى إسناده من لا أعرفه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه هو الذى يسخر البرق، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعًا من خلل السحاب. وروى ابن جرير أن ابن عباس كتب إلى أبى الجلد يسأله عن البرق، فقال: البرق الماء. وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال قتادة: خوفًا للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعًا للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع فى رزق الله، ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أى ويخلقها منشأة جديدة، وهى لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض قال مجاهد: والسحاب الثقال الذى فيه الماء، قال: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ كقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال الإمام أحمد[2]: حدثنا يزيد، حدثنا إبراهيم بن سعد، أخبرنى أبى قال: كنت جالسًا إلى جنب حميد بن عبد الرحمن فى المسجد، فمر شيخ من بنى غفار، فأرسل إليه حميد، فلما أقبل قال: يا ابن أخى، وسع له فيما بينى وبينك.

فقال له حميد: ما الحديث الذى حدثتنى عن رسول الله ﷺ؟ فقال له الشيخ: سمعت النبى ﷺ يقول: «إن الله ينشىء السحاب فينطق أحسن النطق، ويضحك أحسن الضحك» والمراد - والله أعلم - أن نطقها الرعد وضحكها البرق. وقال موسى بن عبيدة عن سعد بن إبراهيم قال: يبعث الله الغيث فلا أحسن منه مضحكًا، ولا آنس منه منطقًا، فضحكه البرق، ومنطقه الرعد.

وقال ابن أبي حاتم[3]: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازى عن محمد بن مسلم قال: بلغنا أن البرق ملك له أربعة وجوه: وجه إنسان، ووجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد، فإذا مصع بذنبه فذاك البرق. وقال الإمام أحمد،[4] حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحجاج، حدثنا أبو مطر عن سالم، عن أبيه قال كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»، ورواه الترمذى[5] والبخارى فى كتاب الأدب،

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي شيبة في صفة العرش، برقم (١٩)، وفيه الهيثم بن الأشعث مجهول.
(٢) المسند (٢٣١٧٤).
(٣) وأخرجه الطبري في التفسير (١/ ١٥٣).
(٤) المسند (٥٧٢٩).
(٥) ضعيف: الترمذي (٣٤٥٠). وانظر ضعيف الترمذي.

والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم في مستدركه من حديث الحجاج بن أرطاة، عن أبي مطر ولم يسم به. وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: [١] حدثنا أحمد بن إسحاق حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل عن أبيه، عن رجل، عن أبي هريرة رفع الحديث، أنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده»، وروى عن علي رضي الله عنه أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان من سبحت له، وكذا روى عن ابن عباس وطاوس والأسود بن يزيد، أنهم كانوا يقولون ذلك. وقال الأوزاعي: كان ابن أبي زكريا يقول: من قال حين يسمع الرعد: سبحان الله وبحمده، لم تصبه صاعقة، «وعن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض»، [٢] رواه مالك في موطئه، والبخاري في كتاب الأدب.

وقال الإمام أحمد [٣]: حدثنا سليمان بن داود الطيالسي، حدثنا صدقة بن موسى حدثنا محمد بن واسع عن شتير بن نهار، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال ربكم عز وجل: لو أن عبيدي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولما أسمعتهم صوت الرعد». وقال الطبراني: [٤] حدثنا زكريا بن يحيى الساجي، حدثنا أبو كامل الجحدري، حدثنا يحيى بن كثير أبو النضر، حدثنا عبد الكريم، حدثنا عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله فإنه لا يصيب ذاكرًا» وقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ أي يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان، كما قال الإمام أحمد: [٥] حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا عمارة عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة حتى يأتي الرجل القوم فيقول: من صعق تلكم الغداة؟ فيقولون: صعق فلان وفلان وفلان».

وقد روى في سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي: [٦] حدثنا إسحاق ابن أبي إسرائيل، حدثنا علي بن أبي سارة الشيباني، حدثنا ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ بعث رجلا مرة إلى رجل من فراعنة العرب، فقال: «اذهب فادعه لي». قال: فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ، فقال له: من رسول الله، وما الله، أمن ذهب هو، أم من فضة هو، أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك، قال لي كذا وكذا، فقال لي: «ارجع إليه الثانية» فذهب فقال له مثلها، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك، فقال: «ارجع إليه فادعه» فرجع إليه الثالثة، قال: فأعاد عليه ذلك الكلام، فبينما هو يكلمه إذ بعث الله عز وجل سحابة حيال رأسه، فرعدت فوقعت منها صاعقة، فذهبت بقحف رأسه، فأنزل الله عز وجل ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ الآية، ورواه ابن جرير من حديث

(١) في التفسير (١٣/ ١٢٤).
(٢) مالك في الموطأ (١٨٦٩)، والبخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٥٢) (٧٢٣).
(٣) المسند (٨٤٩٣).
(٤) ضعيف جدًا: في الكبير (١١/ ١٦٤)، برقم (١١٣٧١)، وانظر ضعيف الجامع، برقم (٥٥١).
(٥) المسند (١١٢٢٦).
(٦) في مسنده (٦/ ١٨٣)، برقم (٣٤٦٨).

على بن أبى سارة به.

ورواه الحافظ أبو بكر البزار [١] عن عبدة بن عبد الله عن يزيد بن هارون، عن ديلم بن غزوان، عن ثابت، عن أنس فذكر نحوه، وقال: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا أبان بن يزيد، حدثنا أبو عمران الجونى عن عبد الرحمن بن صحار العبدى أنه بلغه أن النبى ﷺ بعثه إلى جبار يدعوه فقال: أرأيتم ربكم أذهب هو؟ أم فضة هو؟ أم لؤلؤ هو؟ قال: فبينما هو يجادلهم إذ بعث الله سحابة فرعدت، فأرسل الله عليه صاعقة، فذهبت بقحف رأسه، ونزلت هذه الآية. وقال أبو بكر بن عياش عن ليث بن أبى سليم، عن مجاهد قال: جاء يهودى فقال: يا محمد أخبرنى عن ربك، من أى شىء هو؟ من نحاس هو، أم من لؤلؤ أو ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته، وأنزل الله ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ الآية.

**وقال قتادة**: ذكر لنا أن رجلا أنكر القرآن، وكذب النبى ﷺ فأرسل الله صاعقة فأهلكته، وأنزل الله ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ الآية، وذكروا فى سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة، لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر، فأبى عليهما رسول الله ﷺ، فقال له عامر بن الطفيل - لعنه الله -: أما والله لأملأنها عليك خيلا جردًا ورجالا مردًا، فقال له رسول الله ﷺ: «يأبى الله عليك ذلك وأبناء قيلة» [٢] يعنى الأنصار، ثم إنهما هما بالفتك برسول الله ﷺ فجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه، فحماه الله تعالى منهماوعصمه، فخرجا من المدينة فانطلقا فى أحياء العرب يجمعان الناس لحربه عليه الصلاة والسلام، فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته، وأما عامر بن الطفيل، فأرسل الله عليه الطاعون فخرجت فيه غدة عظيمة، فجعل يقول: يا آل عامر غدة كغدة البكر، وموت فى بيت سلولية، حتى ماتا لعنهما الله، وأنزل الله فى مثل ذلك ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾، وفى ذلك يقول لبيد بن ربيعة أخو أربد يرثيه:

أخشى على أربد الحتوف ولا ... أرهب نوء السماك والأسد

فجعنى الرعد والصواعق بال ... فارس يوم الكريهة النجد

**وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى**: حدثنا مسعدة بن سعيد العطار، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى، حدثنى عبد العزيز بن عمران، حدثنى عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم عن أبيهما، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس أن أربد بن قيس جزي بن خالد بن جعفر بن كلاب، وعامر بن الطفيل بن مالك، قدما المدينة على رسول الله ﷺ، فانتهيا إليه وهو جالس فجلسا بين يديه، فقال عامر بن الطفيل: يا محمد، ما تجعل لى إن أسلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: «لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم». قال عامر بن الطفيل: أتجعل لى الأمر إن أسلمت من بعدك؟ قال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك لك ولا لقومك، ولكن لك أعنة الخيل» قال: أنا الآن فى أعنة خيل نجد، اجعل لى الوبر ولك المدر. قال رسول الله ﷺ: «لا»، فلما قفلا من عنده قال عامر: أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالاً، فقال له رسول الله ﷺ: «يمنعك الله»، فلما خرج أربد وعامر، قال عامر: يا أربد، أنا

(١) الطبري في تفسيره (١٣/ ١٢٥).

(٢) أخرجه الطبري في التفسير (١٣/ ١٢٦) مرسلاً.

أشغل عنك محمدًا بالحديث فاضربه بالسيف، فإن الناس إذا قتلت محمدًا لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب، فنعطيهم الدية. قال أربد: أفعل، فأقبلا راجعين إليه، فقال عامر: يا محمد قم معى أكلمك، فقام معه رسول الله ﷺ فجلسا إلى الجدار، ووقف معه رسول الله ﷺ يكلمه، وسل أربد السيف، فلما وضع يده على قائم السيف يبست يده على قائم السيف، فلم يستطع سل السيف، فأبطأ أربد على عامر بالضرب، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد وما يصنع، فانصرف عنهما، فلما خرج عامر وأربد من عند رسول الله ﷺ حتى إذا كانا بالحرة - حرة راقم - نزلا، فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، فقالا: اشخصا يا عدوى الله لعنكما الله، فقال عامر: من هذا يا سعد؟ قال: هذا أسيد بن حضير الكتائب، فخرجا حتى إذا كانا بالرقم، أرسل الله على أربد صاعقة فقتلته، وخرج عامر حتى إذا كان بالخريم أرسل الله قرحة فأخذته، فأدركه الليل فى بيت امرأة من بنى سلول، فجعل يمس قرحته فى حلقه ويقول: غدة كغدة الجمل فى بيت سلولية، يرغب أن يموت فى بيتها، ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعًا، فأنزل الله فيهما ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ - إلى قوله - ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ٨-١١] قال: المعقبات من أمر الله يحفظون محمدًا ﷺ، ثم ذكر أربد وما قتله به، فقال ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الآية.

وقوله ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أى يشكون فى عظمته، وأنه لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ قال ابن جرير: شديدة مما حلته فى عقوبة من طغى عليه، وعتا وتمادى فى كفره، وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠-٥١]، وعن على رضى الله عنه ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أى شديد الأخذ، وقال مجاهد: شديد القوة.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾﴾

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ قال: التوحيد، رواه ابن جرير. وقال ابن عباس وقتادة ومالك عن محمد بن المنكدر ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ لا إله إلا الله ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ الآية، أى ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾. قال على بن أبى طالب: كمثل الذى يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبدًا بيده، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد: ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبدًا، وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شى، كما قال الشاعر:

فإنى وإياكم وشوقًا إليكم ... كقابض ماء لم تسقه أنامله

وقال الآخر:

فأصبحت مما كان بينى وبينها ... من الودّ مثل القابض الماء باليد

ومعنى الكلام أن هذا الذى يبسط يده إلى الماء إما قابضًا وإما متناولا له من بعد كما أنه لا ينتفع بالماء الذى لم يصل إلى فيه الذى جعله محلا للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله

إلهًا غيره، لا ينتفعون بهم أبدًا فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولهذا قال ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

سجدة ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾﴾

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه، الذى قهر كل شىء، ودان له كل شىء، ولهذا يسجد له كل شىء طوعًا من المؤمنين وكرهًا على الكافرين ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ﴾ أى البكر ﴿وَٱلْءَاصَالِ﴾ وهو جمع أصيل، وهو آخر النهار، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ﴾ الآية [النحل: ٤٨].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، لأنهم معترفون بأنه هو الذى خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك هم الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعًا ولا ضرًا، أى لا تحصل منفعة ولا تدفع عنهم مضرة، فهل يستوى من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له هو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ أى أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله فى الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره أى ليس الأمر كذلك فإنه لا يشابهه شىء، ولا يماثله ولا ند له ولا عدل له ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له، عبيد له، كما كانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك، وكما أخبر تعالى عنهم فى قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فأنكر تعالى عليهم ذلك حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبا: ٢٣] ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النجم: ٢٦] الآية، وقال ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥] فإذا كان الجميع عبيدًا، فلم يعبد بعضهم بعضًا بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأى والاختراع والابتداع، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم، تزجرهم عن ذلك وتنهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق فى ثباته وبقائه، والباطل فى اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أى مطرًا ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ أى أخذ كل واد بحسبه،

فهذا كبير وسع كثيرًا من الماء، وهذا صغير فوسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علما كثيرًا، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أى فجاء على وجه الماء الذى سال فى هذه الأودية زبد عال عليه، هذا مثل.

وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾ الآية، هذا هو المثل الثانى وهو ما يسبك فى النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية، أى ليجعل حلية نحاس أو حديد، فيجعل متاعًا، فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أى إذا اجتمعا، لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة، ونحوه مما يسبك فى النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ أى لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق، ويذهب فى جانبى الوادى، ويعلق بالشجر، وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس، يذهب لا يرجع منه شىء ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به، ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وقال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلا من القرآن فلم أفهمه، بكيت على نفسى، لأن الله تعالى يقول ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ الآية، هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله وهو قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ وهو الشك، ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو اليقين، وكما يجعل الحلى فى النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه فى النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك، وقال العوفى عن ابن عباس قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ يقول: احتمل السيل ما فى الوادى من عود ودمنة ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت، فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السىء يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، وكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله، فمن عمل بالحق كان له، وبقى كما يبقى ما ينفع الناس فى الأرض، وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل فى النار، فتأكل خبثه، ويخرج جيده فينتفع به، فكذلك يضمحل الباطل، فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق، وهكذا روى فى تفسيرها عن مجاهد والحسن البصرى وعطاء وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف.

وقد ضرب سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة للمنافقين مثلين: ناريًا ومائيًا وهما قوله ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ الآية [البقرة: ١٧]، ثم قال ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩] الآية، وهكذا ضرب للكافرين فى سورة النور مثلين (أحدهما) قوله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ الآية [النور: ٣٩]، والسراب إنما يكون فى شدة الحر،

ولهذا جاء فى الصحيحين [١] : فيقال لليهود يوم القيامة : فما تريدون؟ فيقولون : أى ربنا عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا تردون؟ فيردون النار فإذا هى كسراب يحطم بعضها بعضًا . ثم قال تعالى فى المثل الآخر : ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ [النور : ٤٠] الآية ، وفى الصحيحين [٢] عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضًا ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلا والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا ، ورعوا ، وسقوا ، وزرعوا ، وأصابت طائفة منها أخرى ، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى ونفع به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» فهذا مثل مائى . وقال فى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد [٣] : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حولها ، جعل الفراش وهذه الدواب التى يقعن فى النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها - قال - : فذلكم مثلى ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار هلم عن النار هلم ، فتغلبونى فتقتحمون فيها» وأخرجاه فى الصحيحين أيضًا ، فهذا مثل نارى .

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال [٤] : ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أى أطاعوا الله ورسوله ، وانقادوا لأوامره ، وصدقوا أخباره الماضية والآتية ، فلهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهو الجزاء الحسن ، كقوله تعالى مخبرًا عن ذى القرنين أنه قال : ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءَ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف : ٨٧-٨٨] ، وقال تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس : ٢٦] . وقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ أى لم يطيعوا الله ، ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أى فى الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا ومثله معه لافتدوا به ، ولكن لا يقبل منهم ، لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفًا ولا عدلا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أى فى الدار الآخرة . أى يناقشون على النقير والقطمير ، والجليل والحقير ، ومن نوقش الحساب عذب ، ولهذا قال ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ .

الحزب ٢٦

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى لا يستوى من يعلم من الناس أن الذى ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هو الحق الذى لا شك فيه ، ولا مرية ، ولا لبس فيه ، ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضًا ، لا يضاد

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٥٨١) ، مسلم برقم (١٨٣) .
(٢) البخاري برقم (٧٩) ، مسلم برقم (٢٢٨١) . (٣) المسند (٢٧٣٣٣) .
(٤) البخاري برقم (٣٤٢٧) ، مسلم برقم (٢٢٨٤) .

شيء منه شيئًا آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أى صدقًا فى الإخبار، وعدلا فى الطلب، فلا يستوى من تحقق صدق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدى إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ولا اتبعه كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ أى أفهذا كهذا؟ لا استواء.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أى إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة، جعلنا الله منهم.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾

يقول تعالى مخبرًا عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار، وهى العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ وليسوا كالمنافقين الذين «إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان»(١) ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام والإحسان إليهم، وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أى فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله فى ذلك، ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ فى الدار الآخرة، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة فى جميع حركاتهم وسكناتهم، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أى عن المحارم والمآثم، ففطموا أنفسهم عنها لله عز وجل ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها، على الوجه الشرعى المرضى ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أى على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أى فى السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، آناء الليل وأطراف النهار ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أى يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرًا واحتمالا وصفحًا وعفوًا، كقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥]، ولهذا قال مخبرًا عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ والعدن الإقامة، أى جنات إقامة يخلدون فيها، وعن عبد الله بن عمرو أنه قال: إن فى الجنة قصرًا يقال له عدن، حوله البروج والمروج، فيه خمسة آلاف باب، على كل باب خمسة آلاف حبرة، لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد.

وقال الضحاك فى قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: مدينة الجنة، فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى،

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤)، ومسلم بنحوه (٥٨).

والناس حولهم بعد والجنات حولها، رواهما ابن جرير. وقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أى يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين، لتقر أعينهم بهم حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى من غير تنقيص للأعلى عن درجته بل امتنانًا من الله وإحسانًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية [الطور: ٢١].

وقوله ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أى وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين، مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام والإقامة فى دار السلام فى جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام. وقال الإمام أحمد [(١)] رحمه الله: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنى سعيد بن أبى أيوب، حدثنا معروف بن سويد الجزامى عن أبى عشانة المعافرى، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء والمهاجرون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم؟ فيقول: إنهم كانوا عبادًا يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا، وتسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء - قال -: فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾».

رواه أبو القاسم الطبرانى [(٢)] عن أحمد بن رشدين، عن أحمد بن صالح، عن عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبى عشانة سمع عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: «أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تقض حتى يموت وهى فى صدره، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها، فيقول: أين عبادى الذين قاتلوا فى سبيلى، وأوذوا فى سبيلى، وجاهدوا فى سبيلى؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب. وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون: ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار، ونقدس لك من هؤلاء الذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب عز وجل: هؤلاء عبادى الذين جاهدوا فى سبيلى، وأوذوا فى سبيلى، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

وقال عبد الله بن المبارك عن بقية بن الوليد: حدثنا أرطاة بن المنذر، وقال: سمعت رجلا من مشيخة الجند يقال له أبو الحجاج يقول: جلست إلى أبى أمامة فقال: إن المؤمن ليكون متكئًا على أريكته إذا دخل الجنة، وعنده سماطان من خدم، وعند طرف السماطين باب مبوب، فيقبل الملك فيستأذن فيقول اقصى الخدم للذى يليه ملك يستأذن، ويقول الذى يليه للذى يليه ملك يستأذن، حتى

(١) المسند (٦٥٣٤).

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٨١)، برقم (٢٣٩٣). وانظر السلسلة الصحيحة، برقم (٢٥٥٩).

يبلغ المؤمن فيقول: ائذنوا، فيقول أقربهم للمؤمن: ائذنوا له، ويقول الذى يليه للذى يليه: ائذنوا له، فكذلك حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب، فيفتح له، فيدخل فيسلم ثم ينصرف، رواه ابن جرير [١].

ورواه ابن أبى حاتم من حديث إسماعيل بن عياش، عن أرطاة بن المنذر عن أبى الحجاج يوسف الألهانى قال: سمعت أبا أمامة فذكر نحوه.

وقد جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء فى رأس كل حول فيقول لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [٢] وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر ما لهم فى الآخرة، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم فى الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كما ثبت فى الحديث «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» [٣]. وفى رواية «وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر» [٤]، ولهذا قال ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ وهى الإبعاد عن الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ وهى سوء العاقبة والمآل، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨].

وقال أبو العالية فى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ الآية، قال: هى ست خصال فى المنافقين، إذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا فى الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾

يذكر تعالى أنه هو الذى يوسع الرزق على من يشاء، ويقتر. على من يشاء، لما له فى ذلك من الحكمة والعدل، وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجًا لهم وإمهالاً، كما قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦] ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين فى الدار الآخرة، فقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾، كما قال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]. وقال: ﴿بَلْ

---

(١) الطبري في التفسير (١٣/ ١٤٢).
(٢) أخرجه الطبري في التفسير (١٣/ ١٤٢).
(٣) أخرجه البخاري برقم (٣٣)، مسلم (٥٩).
(٤) سبق تخريجه.

﴿تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]. وقال الإمام أحمد [١]: حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد، قالا: حدثنا إسماعيل بن أبى خالد عن قيس، عن المستورد أخى بنى فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم، فلينظر بم ترجع وأشار بالسبابة»، رواه مسلم [٢] فى صحيحه. وفى الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ مر بجدى أسك ميت، والأسك الصغير الأذنين، فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه» [٣].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

يخبر تعالى عن قيل المشركين ﴿لَوْلَآ﴾ [الرعد: ٢٧] أى هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرعد: ٢٧]، كقولهم ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]. وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا، وفى الحديث «إن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهبًا، وأن يجرى لهم ينبوعًا، وأن يزيح الجبال من حول مكة، فيصير مكانها مروج وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا أعذبهم عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة» [٤]، ولهذا قال لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧] أى هو المضل والهادى سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجبهم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلال ليس منوطًا بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧] أى ويهدى إليه من أناب إلى الله ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أى تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيرًا، ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أى هو حقيق بذلك.

**وقوله:** ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس: فرح وقرة عين. وقال عكرمة: نعم ما لهم. وقال الضحاك: غبطة لهم. وقال إبراهيم النخعى: خير لهم. وقال قتادة: هى كلمة عربية، يقول الرجل: طوبى لك، أى أصبت خيرًا. وقال فى رواية: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ حسنى لهم، ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ أى مرجع، وهذه الأقوال شىء واحد، لا منافاة بينها. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ قال: هى أرض الجنة بالحبشية، وقال سعيد بن مسجوح: طوبى اسم الجنة بالهندية، وكذا روى السدى عن عكرمة: طوبى لهم أى الجنة،

---

(١) المسند (١٧٥٤٧). (٢) مسلم (٢٨٥٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٥٧)، أحمد (١٤٥١٣) بلفظ: «والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»، من حديث جابر بن عبد الله.

(٤) المسند (٣٢١٣)، من حديث ابن عباس.

وبه قال مجاهد. وقال العوفي عن ابن عباس: لما خلق الله الجنة وفرغ منها، قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ وذلك حين أعجبته.

وقال ابن جرير [١] حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب عن جعفر، عن شهر بن حوشب قال: طوبى شجرة فى الجنة، كل شجر الجنة منها، أغصانها من وراء سور الجنة، وهكذا روى عن أبى هريرة وابن عباس ومغيث بن سمى وأبى إسحاق السبيعى، وغير واحد من السلف أن طوبى شجرة فى الجنة فى كل دار منها غصن منها. وذكر بعضهم أن الرحمن تبارك وتعالى غرسها بيده من حبة لؤلؤة، وأمرها أن تمتد، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة من عسل وخمر وماء ولبن. وقد قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمح حدثه عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، مرفوعًا «طوبى شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» [٢].

وقال الإمام أحمد [٣]: حدثنا حسن بن موسى، سمعت عبد الله بن لهيعة، حدثنا دراج أبو السمح أن أبا الهيثم حدثه عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول الله ﷺ أن رجلا قال: يا رسول الله: طوبى لمن رآك وآمن بك، قال: «طوبى لمن رآنى وآمن بى، ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى» قال له رجل: وما طوبى؟ قال: «شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها». وروى البخارى ومسلم [٤] جميعًا عن إسحاق بن راهويه، عن مغيرة المخزومى عن وهيب عن أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها» قال: فحدثت به النعمان بن أبى عياش الزرقى، فقال: حدثنى أبو سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها» [٥].

وفى صحيح البخارى [٦] من حديث يزيد بن زريع عن سعيد، عن قتادة، عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فى قول الله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] قال: «فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها». وقال الإمام أحمد [٧]: حدثنا سريج، حدثنا فليح عن هلال بن على، عن عبد الرحمن بن أبى عمرة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة، اقرأوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]. أخرجاه فى الصحيحين [٨].

وقال أحمد [٩] أيضًا: حدثنا محمد بن جعفر وحجاج، قالا: حدثنا شعبة: سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين - أو مائة سنة - هى شجرة الخلد». وقال محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير،

---

(١) الطبري في التفسير (١٣/ ١٤٧).
(٢) المسند (١١٢٧٦)، من حديث أبي سعيد الخدري.
(٣) المسند (١١٢٧٦).
(٤) البخاري برقم (٤٨٨١)، مسلم برقم (٢٨٢٦) من حديث أبي هريرة.
(٥) أخرجه البخاري برقم (٦٥٥٣).
(٦) البخاري برقم (٣٢٥١).
(٧) المسند (٢٧٨٨).
(٨) سبق تخريجه.
(٩) المسند (٩٥٦٠).

عن أبيه، عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ وذكر سدرة المنتهى، قال: «يسير فى ظل الفتن منها الراكب مائة سنة - أو قال - يستظل فى الفنن منها مائة راكب، فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال» رواه الترمذى [١].

وقال إسماعيل بن عياش عن سعيد بن يوسف، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلام الأسود قال: سمعت أبا أمامة الباهلى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى، فتفتح له أكمامها فيأخذ من أى ذلك شاء، إن شاء أبيض وإن شاء أحمر، وإن شاء أصفر، وإن شاء أسود مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن» [٢]، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير [٣]: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور عن معمر، عن أشعث بن عبد الله، عن شهر بن حوشب، عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: طوبى شجرة فى الجنة، يقول الله لها: تفتقى لعبدى عما شاء، فتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها، وعن الإبل بأزمتها، وعما شاء من الكسوة.

وقد روى ابن جرير [٤] عن وهب بن منبه ههنا أثرًا غريبًا عجيبًا، قال وهب رحمه الله: إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى، يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها، زهرها رياط، وورقها برود، وقضبانها عنبر، وبطحاؤها يا قوت، وترابها كافور، ووحلها مسك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهى مجلس لأهل الجنة، فبينا هم فى مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم يقودون نجبًا مزمومة، بسلاسل من ذهب، وجوهها كالمصابيح حسنًا، ووبرها كخز المرعزى من لينه، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودفوفها من ذهب، وثيابها من سندس وإستبرق، فينيخونها ويقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه. قال: فيركبونها فهى أسرع من الطائر، وأوطأ من الفراش، نجبًا من غير مهنة، يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب أذن راحلة منها أذن الآخرى، ولا برك راحلة برك الأخرى، حتى إن الشجرة لتتنحى عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه، قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه، فإذا رأوه قالوا: اللهم أنت السلام ومنك السلام وحق لك الجلال والإكرام.

قال: فيقول تبارك وتعالى عند ذلك: أنا السلام ومنى السلام وعليكم حقت رحمتى ومحبتى، مرحبًا بعبادى الذين خشونى بغيب وأطاعوا أمرى.

قال: فيقولون: ربنا إنا لم نعبدك حق عبادتك، ولم نقدرك حق قدرك، فأذن لنا فى السجود قدامك.

قال: فيقول الله: إنها ليست بدار نصب ولا عبادة، ولكنها دار ملك ونعيم، وإنى قد رفعت عنكم نصب العبادة، فسلونى ما شئتم، فإن لكل رجل منكم أمنيته، فيسألونه حتى إن أقصرهم أمنية ليقول: رب تنافس أهل الدنيا فى دنياهم فتضايقوا فيها رب فآتنى مثل كل شىء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن

---

(١) ضعيف: الترمذي برقم (٢٥٤١)، وانظر ضعيف الترمذي.

(٢) ضعيف: ذكره المنذري في الترغيب والترهيب فيه سعيد بن يوسف: ضعيف كما في التقريب، وانظر ضعيف الترغيب للألباني، برقم (٢٢١٢).

(٣) أخرجه الطبري في التفسير (١٣/ ١٤٧). (٤) الطبري في التفسير (١٣/ ١٤٨).

انتهت الدنيا، فيقول الله تعالى: لقد قصرت بك أمنيتك، ولقد سألت دون منزلتك، هذا لك منى، وسأتحفك بمنزلتى لأنه ليس فى عطائى نكد ولا تصد يد، قال: ثم يقول: اعرضوا على عبادى ما لم يبلغ أمانيهم، ولم يخطر لهم على بال.

قال: فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم التى فى أنفسهم، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرنة، على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة، على كل سرير منها قبة من ذهب، مفرغة فى كل قبة منها فرش من فرش الجنة، متظاهرة فى كل قبة منها جاريتان من الحور العين، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة، وليس فى الجنة لون إلا وهو فيهما، ولا ريح طيبة إلا قد عبقتا به، ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة حتى يظن من يراهما أنهما دون القبة، يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض فى ياقوتة حمراء يريان له من الفضل على صاحبته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل، ويرى هو لهما مثل ذلك ويدخل إليهما فيحييانه، ويقبلانه، ويتعلقان به، ويقولان له: والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفًا فى الجنة حتى ينتهى بكل رجل منهم إلى منزلته التى أعدت له.

وقد روى هذا الأثر ابن أبى حاتم بسنده عن وهب بن منبه، وزاد: فانظروا إلى موهوب ربكم الذى وهب لكم، فإذا هو بقباب فى الرفيق الأعلى، وغرف مبنية من الدر والمرجان، وأبوابها من ذهب، وسررها من ياقوت، وفرشها من سندس وإستبرق، ومنابرها من نور يفور من أبوابها، وعراصها نور مثل شعاع الشمس عنده مثل الكوكب الدرى فى النهار المضىء، وإذا بقصور شامخة فى أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها، فلولا أنه مسخر إذًا لالتمع الأبصار، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض، وما كان فيها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقرى الأحمر، وما كان فيها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان فيها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالأرجوان الأصفر، منزه بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء، قوائمها وأركانها من الجوهر، وشرفها قباب من لؤلؤ، وبروجها غرف من المرجان، فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم، قربت لهم براذين من ياقوت أبيض، منفوخ فيها الروح، تجنبها الولدان المخلدون بيد كل وليد منهم حكمة برذون من تلك البراذين، ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت، سروجها سرر موضونة مفروشة بالسندس والإستبرق، فانطلقت بهم تلك البراذين تزف بهم ببطن رياض الجنة، فلما انتهوا إلى منازلهم، وجدوا الملائكة قعودًا على منابر من نور ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامة ربهم، فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم، وما سألوا وتمنوا، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان: جنتان ذواتا أفنان، وجنتان مدهامتان، وفيهما عينان نضاختان، وفيهما من كل فاكهة زوجان، وحور مقصورات فى الخيام، فلما تبينوا منازلهم واستقروا قرارهم، قال لهم ربهم: هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟ قالوا: نعم وربنا. قال: هل رضيتم ثواب ربكم؟، قالوا: ربنا رضينا فارض عنا. قال: برضاى عنكم حللتم دارى، ونظرتم إلى وجهى، وصافحتكم ملائكتى، فهنيئًا هنيئًا لكم، ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] ليس فيه تنغيص ولا تصيد، فعند ذلك قالوا: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن، وأدخلنا دار المقامة

من فضله، لا يمسنا فيها نصب، ولا يمسنا فيها لغوب، إن ربنا لغفور شكور، وهذا سياق غريب، وأثر عجيب، ولبعضه شواهد، ففى الصحيحين [١] أن الله تعالى يقول لذلك الرجل يكون آخر أهل الجنة دخولا الجنة: تمنّ، فيتمنى، حتى إذا انتهت به الأمانى يقول الله تعالى: تمن من كذا، وتمن من كذا، يذكره، ثم يقول: ذلك لك وعشرة أمثاله.

وفى صحيح مسلم [٢] عن أبى ذر، عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل «يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكى شيئًا إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل فى البحر». الحديث بطوله.

وقال خالد بن معدان: إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى، لها ضروع كلها ترضع صبيان أهل الجنة، وإن سقط المرأة يكون فى نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة، فيبعث ابن أربعين سنة، رواه ابن أبى حاتم.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

**يقول تعالى** وكما أرسلناك يا محمد فى هذه الأمة ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أى تبلغهم رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا فى الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كذب الرسل من قبلك فلك فيهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين.

قال الله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤] أى كيف نصرناهم، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة.

**وقوله**: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أى هذه الأمة التى بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، «ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندرى ما الرحمن الرحيم».

قاله قتادة، والحديث فى صحيح البخارى [٣]. وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]. وفى صحيح مسلم [٤] عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن» ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى هذا الذى تكفرون به، أنا مؤمن به معترف، مقر له بالربوبية والإلهية، هو ربى لا إله إلا هو ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أى فى جميع أمورى، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أى إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.

---

(١) البخاري برقم (٦٥٧٤)، مسلم برقم (١٨٢) من حديث أبي هريرة.
(٢) مسلم برقم (٢٥٧٧).
(٣) البخاري برقم (٢٧٣٤) من حديث المسور بن مخرمة.
(٤) مسلم برقم (٢١٣٢)، بلفظ «أسمائكم».

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى مادحًا للقرآن الذى أنزله على محمد ﷺ ومفضلا له على سائر الكتب المنزلة قبله ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أى لو كان فى الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى فى قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذى لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به، جاحدون له ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أى مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يضلل الله فلا هادى له، ومن يهد الله فلا مضل له، وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة، لأنه مشتق من الجميع.

**قال الإمام أحمد** [١]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن همام بن منبه. قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «خففت على داود عليه السلام القراءة فكان يأمر بدابته أن تسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه» انفرد بإخراجه البخارى [٢].

والمراد بالقرآن هو الزبور. وقوله ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أى من إيمان جميع الخلق ويعلموا، أو يتبينوا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع فى النفوس والعقول من هذا القرآن الذى لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله. وثبت فى الصحيح [٣] أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبى إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»، معناه أن معجزة كل نبى انقرضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد لا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد ولا يشبع منه العلماء هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله.

**وقال ابن أبي حاتم** [٤]: حدثنا أبو زرعة، حدثنا منجاب بن الحارث، أنبأنا بشر بن عمارة، حدثنا عمر بن حسان عن عطية العوفى قال: قلت له: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية، قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع، فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيى الموتى لقومه، فأنزل الله هذه الآية، قال: قلت: هل تروون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبى ﷺ قال: نعم عن أبى سعيد عن النبى ﷺ، وكذا روى ابن عباس والشعبى وقتادة والثورى وغير واحد فى سبب نزول هذه الآية،

(١) المسند (٣٧٣٧٧).
(٢) البخاري برقم (٣٤١٧)، من حديث أبي هريرة.
(٣) البخاري برقم (٧٢٧٤)، مسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة.
(٤) ضعيف: فيه عطية العوفي: صدوق يخطئ كثيرًا وكان شيعيًا مدلسًا.

فالله أعلم. وقال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم فعل بقرآنكم.

وقوله ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ قال ابن عباس: أى لا يصنع من ذلك إلا ما شاء ولم يكن ليفعل، رواه ابن إسحاق بسنده عنه، وقاله ابن جرير أيضًا. وقال غير واحد من السلف فى قوله ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾: أفلم يعلم الذين آمنوا، وقرأ آخرون: (أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا). وقال أبو العالية: قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعًا. وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أى بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم فى الدنيا أو تصيب من حولهم، ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧] وقال ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الأنبياء: ٤٤]. قال قتادة عن الحسن ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أى القارعة وهذا هو الظاهر من السياق.

وقال أبو داود الطيالسى [١]: حدثنا المسعودى عن قتادة عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ قال: سرية، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قال محمد ﷺ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ قال «فتح مكة»، وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد فى رواية، وقال العوفى عن ابن عباس ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ قال: عذاب من السماء ينزل عليهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ يعنى نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله إياهم، وكذا قال مجاهد وقتادة.

وقال عكرمة فى رواية عن ابن عباس ﴿قَارِعَةٌ﴾ أى نكبة. كلهم قال ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ يعنى فتح مكة. وقال الحسن البصرى: يوم القيامة، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أى لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى مسليًا لرسوله ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أى فلك فيهم أسوة ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أى أنظرتهم وأجلتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أخذة رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨] وفى الصحيحين [٢] «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أى حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة

(١) أخرجه الطبري (٣/ ١٥٦)، من طريق أبي داود الطيالسي.

(٢) البخاري برقم (٤٦٨٦)، مسلم برقم (٢٥٨٣)، من حديث أبي موسى.

يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وقال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] أفمن هو هكذا كالأصنام التى يعبدونها، لا تسمع ولا تبصر، ولا تعقل، ولا تملك نفعًا لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أى عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أى أعلمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا، فإنهم لا حقيقة لهم، ولهذا قال: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أى لا وجود له، لأنه لو كان له وجود فى الأرض لعلمها، لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

قال مجاهد: بظن من القول. وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول، أى إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميتموها آلهة ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾.

قال مجاهد: قولهم أى ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار كما قال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]، ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ من قرأها بفتح الصاد معناه أنه لما زين لهم ما هم فيه، وأنه حق دعوا إليه، وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل، ومن قرأها ﴿وَصُدُّوا۟﴾ أى بما زين لهم من صحة ما هم عليه، صدوا به عن سبيل الله، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ كما قال ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١] وقال ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

ربع الحزب ٢٦

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أى بأيدى المؤمنين قتلا وأسرًا، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أى المدخر مع هذا الخزى فى الدنيا ﴿أَشَقُّ﴾ أى من هذا بكثير، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»[1] وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه، فإن عذاب الدنيا له

(١) أخرجه مسلم برقم (١٤٩٣)، الترمذي برقم (١٢٠٢)، النسائي برقم (٣٤٧٣)، أحمد برقم (٤٩٨٩)، من حديث ابن عمر.

انقضاء، وذاك دائم أبدًا فى نار هى بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفًا، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥-٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ [الفرقان: ١١-١٥]، ولهذا قرن هذا بهذا فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أى صفتها ونعتها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أى سارحة فى أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيرًا، أى يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أى فيها المطاعم والفواكه والمشارب لاانقطاع ولا فناء، وفى الصحيحين [(١)] من حديث ابن عباس فى صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئًا فى مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكعت، فقال: «إنى رأيت الجنة - أو أريت الجنة - فتناولت منها عنقودًا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا».

**وقال الحافظ أبو يعلى**: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عبيد الله، حدثنا أبو عقيل عن جابر قال: بينما نحن فى صلاة الظهر إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا، ثم تناول شيئًا ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة، قال له أبى بن كعب: يا رسول الله، صنعت اليوم فى الصلاة شيئًا ما رأيناك كنت تصنعه، فقال: «إنى عرضت على الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفًا من عنب لآتيكم به، فحيل بينى وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه». وروى مسلم من حديث أبى الزبير عن جابر شاهدًا لبعضه، وعن عتبة بن عبد السلمى أن أعرابيًا سأل النبى ﷺ عن الجنة، فقال: فيها عنب؟ قال: «نعم». قال: فما عظم العنقود؟ قال: «مسيرة شهر للغراب الأبقع ولا يفتر»، رواه أحمد [(٢)].

**وقال الطبرانى** [(٣)]: حدثنا معاذ بن المثنى، حدثنا على بن المدينى، حدثنا ريحان بن سعيد عن عباد بن منصور، عن أيوب عن أبى قلابة عن أبى أسماء، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى». وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يتمخطون ولا يتغوطون، ولا يبولون، طعامهم جشاء كريح المسك، ويلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس» رواه مسلم [(٤)]، وروى الإمام أحمد والنسائى [(٥)] من حديث الأعمش عن ثمامة بن عقبة، سمعت زيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم: تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: «نعم، والذى نفس محمد

---

(١) البخاري برقم (٧٤٨)، مسلم برقم (٩٠٧).
(٢) المسند (١٧١٩٠)، من حديث عتبة بن عبد السلمي.
(٣) في الكبير (٢/ ١٠٢)، برقم (١٤٤٩).
(٤) مسلم برقم (٢٨٣٥).
(٥) المسند (١٨٧٨٣).

بيده، إن الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل فى الأكل والشرب والجماع والشهوة». قال: فإن الذى يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس فى الجنة أذى؟ قال: «حاجة أحدهم رشح يفيض من جلودهم كريح المسك فيضمر بطنه».

**وقال الحسن بن عرفة**: حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة، فيخر بين يديك مشويًا» [1] وجاء فى بعض الأحاديث أنه إذا فرغ منه عاد طائرًا كما كان بإذن الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢-٣٣]، وقال ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤] وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وقد تقدم فى الصحيحين [2] من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع فى ظلها مائة عام لا يقطعها» ثم قرأ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ليرغب فى الجنة ويحذر من النار، ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر قال بعده: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾. كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

**وقال بلال بن سعد خطيب دمشق فى بعض خطبه**: عباد الله، هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئًا من عبادتكم تقبلت منكم، أو أن شيئًا من خطاياكم غفرت لكم؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، والله لو عجل لكم الثواب فى الدنيا لاستقللتم كلكم ما افترض عليكم، أو ترغبون فى طاعة الله لتعجيل دنياكم ولا تنافسون فى جنة ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ رواه ابن أبى حاتم [3].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

**يقول تعالى** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أى من القرآن لما فى كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨] أى إن كان ما وعدنا الله به فى كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقًا وصدقًا مفعولا لا محالة وكائنًا، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٥/ ٤٣٦)، برقم (١١٧١).
(٢) البخاري برقم (٤٨٨١)، مسلم (٢٨٢٦)، من حديث أبي هريرة.
(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٢٣٢).

خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]، وقوله ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ أى ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك. وقال مجاهد ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ اليهود والنصارى من ينكر بعض ما جاءك من الحق، وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩٩]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ أى إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلى ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ أى إلى سبيله أدعو الناس ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أى مرجعى ومصيرى.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أى وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكما معربًا، شرفناك به، وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلى الذى ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أى آراءهم ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أى من الله تعالى ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى وكما أرسلناك يا محمد رسولا بشريًا، كذلك بعثنا المرسلين قبلك بشرًا، يأكلون الطعام، ويمشون فى الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجًا وذرية، وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠] وفى الصحيحين [١] أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل الدسم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى». وقال الإمام أحمد [٢]: حدثنا يزيد، أنبأنا الحجاج بن أرطاة عن مكحول قال: قال أبو أيوب: قال رسول الله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين: التعطر والنكاح. والسواك، والحناء». وقد رواه أبو عيسى الترمذى [٣] عن سفيان بن وكيع عن حفص بن غياث، عن الحجاج، عن مكحول، عن أبى الشمال، عن أبى أيوب فذكره، ثم قال: وهذا أصح من الحديث الذى لم يذكر فيه أبو الشمال.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أى لم يكن يأتى قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل إلى الله عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أى لكل مدة مضروبة، كتاب مكتوب بها، وكل شىء عنده بمقدار ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وكان الضحاك بن مزاحم يقول فى قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أى لكل كتاب أجل، يعنى لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله، ومقدار معين، فلهذا

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٠٦٣)، مسلم برقم (١٤٠١)، من حديث أنس بن مالك.
(٢) المسند (٢٣٠٦٩).
(٣) ضعيف الترمذي (١٠٨٠)، وانظر ضعيف الترمذي.

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ منها، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ يعنى حتى نسخت كلها بالقرآن الذى أنزله الله على رسوله صوات الله وسلامه عليه. وقوله ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ اختلف المفسرون فى ذلك فقال الثورى ووكيع وهشيم عن ابن أبى ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت، وفى رواية ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: كل شىء إلا الحياة والموت والشقاء والسعادة، فإنهما قد فرغ منهما.

وقال مجاهد ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ إلا الحياة والموت والشقاء والسعادة فإنهما لا يتغيران. وقال منصور: سألت مجاهدًا، فقلت: أرأيت دعاء أحدنا يقول: اللهم إن كان اسمى فى السعداء فأثبته فيهم، وإن كان فى الأشقياء فامحه عنهم، واجعله فى السعداء؟ فقال: حسن ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر، فسألته عن ذلك فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ الآيتين [الدخان: ٣-٤]، قال: يقضى فى ليلة القدر ما يكون فى السنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأما كتاب الشقاوة والسعادة فهو ثابت لا يغير، وقال الأعمش، عن أبى وائل شقيق بن سلمة: إنه كان كثيرًا ما يدعو بهذا الدعاء: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء، فامحه واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، رواه ابن جرير [١]، وقال ابن جرير [٢] أيضًا: حدثنا عمرو بن على حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبى عن أبى حكيمة عصمة، عن أبى عثمان النهدى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال وهو يطوف بالبيت وهو يبكى: اللهم إن كنت كتبت على شقوة أو ذنبًا فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة.

وقال حماد عن خالد الحذاء، عن أبى قلابة، عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضًا. ورواه شريك عن هلال بن حميد، عن عبد الله بن عكيم، عن ابن مسعود بمثله.

وقال ابن جرير [٣]: حدثنى المثنى، حدثنا حجاج، حدثنا خصاف عن أبى حمزة، عن إبراهيم، أن كعبًا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لولا آية فى كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة. قال: وما هي؟ قال: قول الله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ الآية، ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول بما ورواه الإمام أحمد [٤]: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان هو الثورى، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبى الجعد، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد فى العمر إلا البر»، ورواه النسائى وابن ماجه من حديث سفيان الثورى به.

وثبت فى الصحيح أن صلة الرحم تزيد فى العمر. وفى حديث آخر «إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض» [٥].

وقال ابن جرير [٦]: حدثنى محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا عبد الرزاق، أنا ابن جريج

---

(١) الطبري في التفسير (١٣/ ١٦٧).
(٢) انظر السابق.
(٣) الطبري في التفسير (١٣/ ١٦٨).
(٤) المسند (٢١٨٨١).
(٥) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤٨٦).
(٦) الطبري في التفسير (١٣/ ١٧٠).

عن عطاء، عن ابن عباس قال: إن لله عز وجل لوحًا محفوظًا مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء لها دفتان من ياقوت - والدفتان: لوحان - لله عز وجل، كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة، يمحو ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب. وقال الليث بن سعد عن زيادة بن محمد، عن محمد بن كعب القرظى، عن فضالة بن عبيد، عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يبقين من الليل، فى الساعة الأولى منها ينظر فى الذكر الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت» وذكر تمام الحديث، رواه ابن جرير [1].

**وقال الكلبى:** ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد [2] فيه، فقيل له: من حدثك بهذا؟ فقال: أبو صالح عن جابر بن عبد الله بن رئاب، عن النبى ﷺ، ثم سئل بعد ذلك عن هذه الآية، فقال: يكتب القول كله حتى إذ كان يوم الخميس طرح منه كل شىء ليس فيه ثواب ولا عليه عقاب، مثل قولك: أكلت وشربت، ودخلت وخرجت، ونحو ذلك من الكلام، وهو صادق، ويثبت ما كان فيه الثواب وعليه العقاب، وقال عكرمة عن ابن عباس: الكتاب كتابان، فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب.

**وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله:** ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يقول: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله، فيموت على ضلالة، فهو الذى يمحو، والذى يثبت الرجل يعمل بمعصية الله، وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو فى طاعة الله وهو الذى يثبت، وروى عن سعيد بن جبير أنها بمعنى ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وجملة ذلك عنده فى أم الكتاب الناسخ والمنسوخ، وما يبدل وما يثبت كل ذلك فى كتاب، وقال قتادة فى قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ كقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] الآية. وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: قالت كفار قريش حين نزلت ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: ما نرى محمدًا يملك من شيء فلقد فرغ من الأمر، فأنزلت هذه الآية تخويفًا ووعيدًا لهم، إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، ونحدث فى كل رمضان، فنمحو ما يشاء، ويثبت ما يشاء من أرزاق الناس ومصائبهم وما نعطيهم وما نقسم لهم.

**وقال الحسن البصرى** ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: من جاء أجله يذهب، ويثبت الذى هو حى يجرى إلى أجله، وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رحمه الله، وقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: الحلال والحرام، وقال قتادة: أى جملة الكتاب وأصله، وقال الضحاك ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: كتاب عند رب العالمين، وقال سنيد بن داود: حدثنى معتمر عن أبيه، عن سيار، عن ابن عباس أنه سأل كعبًا عن أم الكتاب، فقال: علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون، ثم قال لعلمه: كن كتابًا فكان كتابًا، قال ابن جريج عن ابن عباس ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: الذكر.

---

(١) الطبري في التفسير (١٣/ ١٧٠).

(٢) الطبري في التفسير (١٣/ ١٧١).

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

**يقول تعالى لرسوله** ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد، بعض الذى نعد أعداءك من الخزى والنكال فى الدنيا ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أى قبل ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أى إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله، وقد بلغت ما أمرت به ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أى حسابهم وجزاؤهم، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢١-٢٦]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾.

**قال ابن عباس**: أو لم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض، وقال فى رواية: أو لم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران فى ناحية. وقال مجاهد وعكرمة: ننقصها من أطرافها، قال: خرابها. وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين. وقال العوفى عن ابن عباس: نقصان أهلها وبركتها. وقال مجاهد: نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض. وقال الشعبى: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك، ولكن تنقص الأنفس والثمرات، وكذا قال عكرمة: لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكانًا تقعد فيه، ولكن هو الموت. وقال ابن عباس فى رواية: خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها، وكذا قال مجاهد أيضًا: هو موت العلماء، وفى هذا المعنى روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبى القاسم المصرى الواعظ سكن أصبهان، حدثنا أبو محمد طلحة بن أسد المرثى بدمشق، أنشدنا أبو بكر الآجرى بمكة قال: أنشدنا أحمد بن غزال لنفسه:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها ... متى يمت عالم منها يمت طرف

كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها ... وإن أبى عاد فى أكنافها التلف

**والقول الأول أولى**، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٧]، وهذا اختيار ابن جرير.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾

**يقول تعالى** ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين، كقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

**وقوله تعالى**: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ الآيتين [النمل: ٥٠-٥٢]. وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أى أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر وسيجزى كل عامل بعمله ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾، والقراءة الأخرى الكفار، ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل، كلا، بل هى لأتباع الرسل فى الدنيا والآخرة، ولله الحمد والمنة.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أى ما أرسلك الله ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أى حسبى الله هو الشاهد على وعليكم. شاهد على فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان، وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قيل: نزلت فى عبد الله بن سلام، قاله مجاهد، وهذا القول غريب، لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم فى أول مقدم النبى ﷺ المدينة، والأظهر فى هذا ما قاله العوفى عن ابن عباس قال: هم من اليهود والنصارى.

وقال قتادة: منهم ابن سلام وسلمان وتميم الدارى، وقال مجاهد فى رواية عنه: هو الله تعالى، وكان سعيد بن جبير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام ويقول: هى مكية، وكان يقرؤها ومن عندِه عُلِم الكتاب ويقول: من عند الله، وكذا قرأها مجاهد والحسن البصرى.

وقد روى ابن جرير [١] من حديث هارون الأعور عن الزهرى عن سالم، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأها ومن عنده علم الكتاب، ثم قال: لا أصل له من حديث الزهرى عند الثقات، قلت، وقد رواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده من طريق هارون بن موسى هذا، عن سليمان بن أرقم، وهو ضعيف، عن الزهرى عن سالم عن أبيه مرفوعًا كذلك ولا يثبت، والله أعلم، والصحيح فى هذا أن ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته فى كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية [الاعراف: ١٥٦-١٥٧] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية [الشعراء: ١٩٧]، وأمثال ذلك مما فيه من الإخبار عن علماء بنى إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة. وقد ورد فى حديث الأحبار عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة.

قال الحافظ أبو نعيم الأصبهانى [٢] فى كتاب دلائل النبوة وهو كتاب جليل: حدثنا سليمان بن أحمد الطبرانى، حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا محمد بن مصفى، حدثنا الوليد بن مسلم عن محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام، عن أبيه عن جده عبد الله بن سلام أنه قال لأحبار اليهود: إنى أردت أن أحدد بمسجد أبينا إبراهيم وإسماعيل عيدًا، فانطلق إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة، فوافاهم وقد انصرفوا من الحج، فوجد رسول الله ﷺ بمنى والناس حوله، فقام مع الناس، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال: «أنت عبد الله بن سلام؟» قال قلت: نعم، قال «ادن». قال: فدنوت منه. قال: «أنشدك بالله يا عبد الله بن سلام، أما تجدنى فى التوراة رسول الله؟» فقلت له: انعت ربنا، قال: فجاء جبريل حتى وقف بين يدى رسول الله ﷺ فقال له: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ

(١) فى التفسير (١٣/ ١٧٨)، وفى إسناده أبو يعلى سليمان بن أرقم: متروك الحديث كما قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٥٨).

(٢) ضعيف: دلائل النبوة (ص٣٠٠)، وفيه الوليد بن مسلم مدلس وقد عنعن.

﴿ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١-٢] إلى آخرها، فقرأها علينا رسول الله ﷺ، فقال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، ثم انصرف ابن سلام إلى المدينة، فكتم إسلامه، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأنا فوق نخلة لى أجذها، فألقيت نفسى، فقالت أمى: لله أنت، لو كان موسى بن عمران ما كان لك أن تلقى نفسك من رأس النخلة، فقلت: والله لأنا أسر بقدوم رسول الله ﷺ من موسى بن عمران إذ بعث، وهذا حديث غريب جدًا. آخر تفسير سورة الرعد، و لله الحمد والمنة.